الحرية بين الحقيقة والزيغ منظور "اريك فروم" و"هربرت ماركوز"

أ.جمال براهيمة

قسم الفلسفة، جامعة قسنطينة2. عبد الحميد مهري

Résumé

La liberté comme thème central de toute pensée philosophique, et comme principe pour d'autres valeurs notamment la responsabilité, elle a des liens solides à la dignité humaine et un pilier essentiel aussi aux sociétés libérales en particulier, ces sociétés avec leur régimes politiques ont souvent été fier par cette liberté, afin d'obtenir la légitimité représentative comme un acquis réclame le respect des libertés individuelles et collectives, et lui donnant des droits sociaux et intellectuelles, mais par contre espèrent Erik from et Herbert Marcuse la liberté dans les sociétés occidentales observer que le modèle de liberté disponibles dans ces communautés ne dépasse pas les limites illusoire, et de lier cette transformation avec la rationalité de contrôle dans ce domaine, au mieux de ses comptes et pour ca en doit se demander : quel justifications qui se fondent leur opinion - Erik from et Herbert Marcuse - et la séparation de l'idée erronée de la liberté ou leur présence véritable?

ملخص

تعتبر الحرية موضوعا محوريا في كل تفكير فلسفي، وأساسا لقيم كثيرة أبرزها المسؤولية وعلى ارتباط متين بالكرامة الإنسانية كما أنها دعامة رئيسية أيضا في المجتمعات الليبرالية خاصة، فكثيرا ما تتباهى الأنظمة السياسية لنيل الشرعية التمثيلية بمكسب احترام الحريات الفردية والجماعية، وتعتبرها من الحقوق الاجتماعية والفكرية، إلا أن تأمل اريك فروم، وهربرت ماركوز لحال الحرية في المجتمعات الغربية يخالف ما يشاع عنها، فقد أشار إلى أن نموذج الحرية المتاح في هذه المجتمعات لا يتجاوز حدود الوهم والزيغ وربط ذلك بتنميط عقلانية السيطرة لهذا المجال بما يتوافق وحساباتها، وعليه وجب التساؤل: ماهي المبررات التي ارتكز عليها رأي فروم وماركوز ومدى موضوعيته في الفصل بين توهم الحرية أو وجودها الحقيقي؟

تأكد مع لحظة الأنوار تثبيت قيمة الحرية، حتى غدت تقليداً يتطلبه كل نظام معرفي أو اجتماعي، وتعبيراً يحمل دلالة وعي الذات لذاتها ولواقعها، وهي فضاء ضروري لإحداث كل تغيير أو تقدم في شتى مسالك المعرفة الحوارية أو الجدلية، والحرية دافع أيضاً وضمانة لكل مراجعة تسعى إلى التقييم والتقويم، مع تعدد لتجلياتها المعرفية والاجتماعية والسياسية، وهي الحاضنة لمختلف المواقف المناهضة للنماذج التقليدية المستسلمة، ولكل نزعة محافظة اكتفت بما أنجزت، ولأنها تجربة ذاتية بالأساس فقد احتاجت إلى جملة من المبادئ والمعايير التي تعمل على تنظيمها لتنتقل من ضيق الذات إلى علاقات التداوت، وكان لرواد مدرسة فرانكفورت من خلال نظريتهم النقدية الاهتمام بهذه القيمة على المستوى النظري والتطبيقي أي كـ"براكسيس" *praxis* يطبع مناحي الحياة في المجتمعات الغربية، واعتبارها إفرزا طبيعياً أنتجه الاحتكام للفعل العقلاني الذي ساهم في فك السحر والاستقلال عن الأسطورة التي كبلت مجتمعات أوروبا لفترات تاريخية معلومة، وقد قادت الحرية إلى الإقرار باستقلالية الفرد في توجيهه الخلقى وتطلعاته السياسية فأعطته حق تقرير وجوده، لتتجسد كممارسة وكحق إنساني ومدني، تحميه قوانين وسلطة الدولة، لكن هذا المكسب في تقدير بعض فلاسفة النظرية النقدية ومنهم "أريك فروم" و"هربرت ماركوز" صورة زائفة تدارى خلف أيديولوجية تحرص على إبداء محاسن واقع هو أبعد عن حقيقته، أمام هذا الوضع القائم الذي آلت إليها الحرية. ما مدى متانة هذه القراءة المغايرة التي تبناها كل من "فروم" و"ماركوز"؟ ثم إلى أي حد تكشف تحليلاتهما تناقضات المجتمعات الغربية الأكثر تقدماً على مستوى القيم وتجلياتها الواقعية؟

أولاً- مطلب الحرية عند أريك فروم

1- بين وعد الحرية وواقع العنف

أفرزت تناقضات ما بعد الأنوار الكثير من المسائل الفكرية والاجتماعية، إضافة إلى انحرافات انعكست أزمات وحروب كبيرة، بما تحمله من ثقل الخراب والمآسي التي

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
طبعت الحياة العامة، وهو أمر تطلب الكثير من المحاولات لتفسير هذا المنحى التدميري
الذي سلكه الإنسان الحديث، وفي ذلك تعددت زوايا الدراسة استعانة بتوجيهات
مذهبية كالرؤية الماركسية للواقع، كما «جرى افتراض أن الإنسان يولد "خيرا"
و"عاقلا"، وعزي إلى الأعراف السيئة، والتربية السيئة، والقذوة السيئة ظهور مجاهداته
الشريفة»¹. أو توظيف الرؤية النفسية بعد الفتح المعرفي الذي أسهم به التحليل
النفسي الفرويدي في محاولة لفهم هذا المنحى، كما هو الحال مع "أريك فروم"، وهو
القائل: « لقد فتح لي فرويد عالما جديدا، ألا وهو عالم اللاوعي »². وقد تابع أعماله
في اتجاه « إنشاء علاقة بين التحليل النفسي والماركسية، عن طريق توسيع تفسيرات
سيغموند فرويد S. freud ، فيما يتعلق بالفرد لتشمل الموقع الطبقي للأسرة والوضع
التاريخي للطبقات الاجتماعية»³. ولأن مثل هذا السلوك ناتج عن فرديات طبعت
الممارسة العامة، والتوجه الرئيس لخط العلاقات بين الأفراد كما بين الدول، ويوحى
بأنها ناتجة عن إرادة مختارة ومدركة للغايات، ما دفع "أريك فروم" للبحث في مسألة
الحرية مركزا على إبراز العلاقة الوظيفية بين الجانب النفسي للفرد، وما يمكن
تسميته بالفعل الحر والمسؤول، على أن "أريك فروم" يدرك إدراكا تاما أن « معنى
الحرية لا يمكن أن يفهم فهما كاملا إلا على أساس تحليل الطابع الكلي لمكوّن الإنسان
الحديث»⁴.

يبدو أن وطأة التغيرات السياسية، والمنحى الخطير الذي آلت إليه معظم العلاقات
الاجتماعية بكل تعقيداتها، خاصة بعد انتشار أفكار تبنتها فرديات متحمسة، ملغية
للآخر المختلف، وسلكت في ذلك مسالك البقاء للأقوى، كما هو الحال مع النازية
المتشددة في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا، ونماذج مختلفة من الديكتاتوريات في مواقع
متعددة من المعمورة، حتى أصبح الرأي العام مجسدا لرؤية شخصية مدمرة على
الأكثر لمكتسبات العهود الماضية، خاصة وأن الإنسان كان يتربخ بالخلص بالعقل
والتكنولوجيا من كل مخلفات الأفكار الظلامية التي أعاققت حراك التطور بما يحمله
من تفاؤل لغد مشرق سلاما ورفاهها.

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة

إن «ازدياد العنف والتدميرية على المستوى القومي والعالمي قد حول انتباه المحترفين والجمهور العام على السواء إلى البحث النظري في طبيعة العدوان وأسبابه»⁵. كما حمل "أريك فروم" على البحث في الأسباب المستترة لمثل هذا النزوع إلى العنف واللاتسامح، وامتهان شريعة البقاء للأقوى، وقد حدد "أريك فروم" نقطة البداية من خلال الاهتمام بالخصائص النفسية، الانفعالية والذهنية وما يكتنه المكبوت في ساحة اللاوعي، وجملة الاحباطات المتكررة التي يتعرض لها الإنسان الفرد بهدف إدراك وفهم آليات الحراك الاجتماعي، وهو بذلك يركز على فهم البعد النفسي لما له من تأثيرات على السلوك الاجتماعي المكون للعملية الاجتماعية حيث يقول: « إذا أردنا أن نفهم ديناميات العملية الاجتماعية، علينا أن نفهم ديناميات العمليات السيكولوجية العاملة داخل الفرد على نحو ما إذا أردنا أن نفهم الفرد، فإنه يتوجب علينا أن نراه في سياق الحضارة التي تشكله»⁶.

لقد تصور "أريك فروم" حرية الإنسان على أنها إتاحة للفضاء الضروري الذي يسمح بإبراز الذات، وحسن توظيف القدرات الكامنة فيها. غير أن ما آل إليه وضع الإنسان كان مناقضا تماما « فبالرغم من أن الحرية قد جلبت له الاستقلال فإن العقلانية قد عزلته ومن ثم جعلته قلقا وعاجزا. وهذه العزلة شيء لا يطاق والبدائل التي أمامه هي إما الهرب من حمل الحرية إلى تبعيات جديدة وخضوع جديد، أو التقدم إلى التحقق الكامل للحرية الايجابية القائمة على فردانية الإنسان»⁷.

إن استقرار تاريخ فكرة الحرية مقترن بالمحاولات المستمرة للتغلب على مختلف الإكراهات الداخلية والخارجية، فالحرية معركة مستمرة لكسر القيود على اختلاف أنواعها، وهي بهذا المعنى تمثل الوجود ما بعد القيد، وقد ضحى الكثير لأجلها « اعتقادا منهم بأن الموت في المعركة ضد الاضطهاد أفضل من العيش بدون حرية. ومثل هذا الموت هو ذروة تأكيد فرديتهم»⁸.

وقد استطاع الإنسان الحديث أن يكسب الكثير من فضاءات الحرية، وأن يحقق تطلعاته بكل ما يملك من طاقات لتجاوز الموانع السياسية، الاقتصادية والفكرية، وتحضر الحرية عند التفاعل الحاصل بين أطراف تمتلك قوة التسلط، وأطراف تريد

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
انتزاع امتيازات الوجود الحر، من منطلق أن سمة الإنسان العقل، وهو إمكانية تتيح
التمييز بين الأمور، وعليه فإن هذه القدرة تعبر عن حق الوجود الحر مع تداعيات
ارتباط ذلك بالمسؤولية، ووجوب تحمل تبعات الأفعال الإرادية، إلى ضرورة الاحتكام
لمقولة الجزاء ثوابا وعقابا، لكن تحت طائلة نصوص قانونية، وإجراءات تنظيمية
لعلاقات المجتمع، وتثير هذه التتابعات مسائل جمة تبدأ من تحديد الحق كمفهوم،
والواجب كأداء، وضرورة التناسب بينهما تحقيقا للعدل، إلى غير ذلك من
الاستنتاجات، وعليه فإن قضية الحرية نواة لنسق من القيم تحضر اضطرابا، مع
التأكيد النظري أن الحرية تتلاشى كلما حددت لها ضوابط، فهي كما ذكرت الوجود
ما بعد القيد وعليه يعتقد "أريك فروم" أن انتصارات الحرية تنقلب عكسا وبعد
حين من الزمن إلى قيود وموانع، كما يتأكد لدينا أن أدنى اهتزاز بهذه المقولة يعقبه
زلزال عنيف لسلم القيم التي أسست على قاعدتها.

يعتقد "أريك فروم" «أن مبادئ الليبرالية الاقتصادية، والديمقراطية السياسية،
والاعتناق الديني الذاتي، والنزعة الفردانية في الحياة الشخصية، إنما تعبر عن الشوق
للحرية، وتلوح في الوقت نفسه أنها تقرب البشرية أكثر من تحقق الحرية»⁹. كونها
انتصارات على نظم الإقطاع والحكم الفردي الاستبدادي، حيث كان الحاكم منفردا
بالسلطة، وكان القانون والشعب في خدمته، كذلك هو انتصار على سلطة الكنيسة
التي سادت عالم السياسة، وأخضعت الملك الحاكم لبركاتها وشرعيتها. غير أن
انجازات معارك الحرية غالبا ما تنتهي من حيث بدأت، خاصة مع بروز شخصيات
تحيد عن المسار العام الذي تحد به خط الحرية الفردية والجماعية، وشواهد من
حلقات التاريخ تؤكد الكثير من ذلك، فموقع النازية، والفاشية الإيطالية الزمني،
حصل عقب انتصار عقل الأنوار على ظلامية الكنيسة، وقيصرتها الشكليين، فكيف
نفسر ذلك؟ هل نستسلم لاعتبارها حوادث منعزلة، وأنها لن تعمر طويلا لتعود الحرية
إلى موقعها، ولنشهد انتصارات أخرى؟

لقد شدَّ هذا الوضع "فروم" للتساؤل مستبعدا التفسيرات التي تكاد تكون طرحا
جامدا ينقصه التدقيق، ومن ذلك «أن انتصار النظام التسلطي الشمولي يرجع إلى

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
جنون أفراد قلائل، وأن جنونهم سيؤدي إلى سقوطهم مع الزمن. ويؤمن آخرون
باعتماد أن الشعب الايطالي أو الألماني تنقصهم فترة طويلة من التدريب على
الديمقراطية (...). وهناك وهم آخر، وربما هو أشد الأوهام خطرا هو أن هناك أناسا
مثل هتلر قد أحرزوا القوة على الجهاز المتسع للدولة لا من خلال شيء سوى الخداع
والدهاء»¹⁰.

2- القابلية للتبعية تركيبية نفسية

ينبه "أريك فروم" أنه من الضروري الانتباه مليا إلى شرائح لا تكثر بالحرب من
أجل الحرية، فمنهم من لديه الاستعداد للتنازل عمّا يعتبر مكسبا، أي - الحرية -
لفائدة مثال كفكرة الزعيم، حيث يقول: « لقد اضطررنا إلى أن نتبين أن هناك في
ألمانيا توجد ملايين شغوفة بأن تسلم حريتها بالقدر نفسه الذي كان آباء هذه الملايين
يقاتلون من أجلها، وأنهم بدل أن يريدوا الحرية بحثوا عن طرق للهرب منها»¹¹. ومن
ثم فإن فهم مسألة الحرية لا يقتضي تجاهل خصائص الفرديات، وكأنه يعتقد
بوجود قابلية للتحرر لدى بعض الأفراد، كما وجود قابلية للتبعية لدى آخرين، فكل
هذا الالتباس يتلاشى عند بزوغ الأنوار الأولى التي تكشف عن دور العامل الذاتي
النفسي بالتحديد، للإيمان بالحرية كقضية محورية تتأسس عليها بقية القيم من
مسؤولية وكرامة إنسانية، فالإقبال على اعتناق مفاهيم الحرية ليس دائما بالصورة
الموحدة لدى جميع الناس.

لقد حاول "أريك فروم" من خلال الكثير من التساؤلات أن يقابل بين اعتبار
الحرية معطى فطريا وهذا يوجب عدم استبعاد احتمال القابلية للخضوع كمعطى
فطري أيضا، بدليل الانجذاب نحو شخصية الزعيم عند بعض الجماعات حيث
يقول: « أليس هناك أيضا- على وجه الاحتمال- بجانب الرغبة الفطرية في الحرية
رغبة غريزية للخضوع؟ وإذا لم تكن هناك مثل هذه الرغبة فكيف نقدر هذه
الجادبية التي نراها اليوم في الخضوع لزعيم عند الكثيرين؟»¹². وقد تساءل قائلا: «
هل يعني هذا أن الإنسان حر حتى ولو ولد مصفودا؟ وهل يعني أن روح العبد يمكن
أن تكون حرة مثل روح سيده؟»¹³. ومثل هذا الانشغال يشجع أكثر للغوص في مسألة

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
ماهية الحرية وعلاقتها بالجوانب النفسية وكيفية تفاعلها مع المعطى الاجتماعي
بعناصره الاقتصادية والسياسية، رغبة في إدراك الوظيفة التي تقدمها العوامل
النفسية لترسم بذلك شكل الفعل الاجتماعي، لأن المجتمع في الأصل يتألف من أفراد
مع التأكيد على النماذج الفردية التي تمتلك إمكانات التأثير في المسار العام للحدث
الاجتماعي.

وقد خلص إلى اعتبار أن « الطبيعة الإنسانية ليست محصلة كلية ثابتة وفطرية
بيولوجيا للدوافع، كما أنها ليست ظلا لا حياة فيه للنماذج الحضارية التي تكيف
نفسها معها بنعومة، إنها نتاج التطور الإنساني »¹⁴. علما أن الإنسان تتغير تصورات،
وقيمه بتغير الأزمنة والمجتمعات، مما يؤكد أن الحرية ليست توقفا فطريا، أو مطلبا
طبيعيا، فكثيرة هي الجماعات التي انزوت تحت إمرة قيم تستبعد الفردية، بداية
بارتباط إنسان القبيلة المشاعية البدائية، أو المملوك بسيد، أو رجل الدين
بكنيسته، أو مسجده، وحتى العهد الراهن توجد فرديات تنزوي طواعية إلى تنظيمات
قانونية أو خفية مع الولاء التام لأهداف الجماعة، تصل إلى حد التضحية بمراتبها.
كما أن الإنسان توجهه قيم مجتمعه فتجعله قابلا للخضوع بغرض الحفاظ على
مكتسبات معينة، « ولقد رأينا أن الفرد عليه أن يتقبل نمط الحياة القائم في نظام
الإنتاج والتوزيع الخاص بأي مجتمع محدد. وفي عملية التكيف الدينامي مع
الحضارة، يتطور عدد من الدوافع القوية التي تحرك الأفعال والمشاعر الخاصة بالفرد
«¹⁵. وهذا يكشف أن الإيمان بأي فكرة أو قيمة تحدد شروط تنطلق من العمق
الذاتي النفسي والذهني بعد تفاعلها مع ما يمكن أن يقدمه الواقع الخارجي من
معطيات، وأن إتيان أي إجراء أو سلوك نحو الحرية، أو نحو الخضوع، مرتبط
بالتجربة الشخصية لكل فرد، ويفهم من ذلك أن قيمة الحرية لا تمتلك قدسية أو
تمام المشروعية، كما يبعد هذا التحليل الذي يقدمه "أريك فروم" عن موضوع
الحرية صفات البداهة والسلامة.

ويؤكد "أريك فروم" انطلاقا من ضبط لمعنى الحرية في صورتها النظرية، وربطها
بالتجربة الشخصية، أو بالفردية وقدراتها الذهنية، قائلا: « إن الحرية تميز الوجود

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
الإنساني كوجود إنساني، وزيادة على ذلك فإن معناها يتغير حسب درجة وعي
الإنسان وتصوره لنفسه ككائن مستقل ومنفصل¹⁶. ويبدو من خلال هذا التصور أن
مفهوم الحرية متغير بتغير وتميز الفرديات، كما يبدو واضحا اعتبارها خاصية إنسانية
محاذية للعقل كجوهر إنساني يتيح إمكانات التمييز بين الأمور، وهو في كل ذلك يذكر
بأن محور الحديث عن الحرية مقترن بحالة الإنسان الحديث بين طرفي التوق
والشغف لفضاء الحرية، أو قبول فكرة الخضوع والاستكانة، فالأمر مرتبط بشكل
الوعي الذي يتحدد لدى كل فردية، ارتباطا وثيقا بتجربته الانفعالية والفكرية،
ودرجات النضج الذهني دون استبعاد المصلحة في طلب المنفعة أو دفع الضرر.

3- الحرية ومخاوف الوحدة والاعتراب

يؤسس "أريك فروم" لبناء تصوره باعتبار الإنسان منذ البداية، أي- إنسان
المشاعية البدائية- كان وجوده منضويا ومرتبطا أشد الارتباط بجماعته، فقد « استمر
الفرد في أن يظل مرتبطا تماما بالعالم الطبيعي والاجتماعي الذي منه بزغ، وبينما هو
يدرك جزئيا نفسه كذاتية منفصلة، شعر أيضا بأنه جزء من العالم الذي حوله »¹⁷.
حتى أن ذاتيته لا يمكن أن تحيد عن توجه الجماعة أي هو انعكاس لروحها، بعدها
بدأ تشكل ما يعرف بالفردية، أو انفصال الذات عن الجماعة، وقد شجعت الكثير من
المتغيرات الانتصار لمثل هذا الانفصال، خاصة وأن المكون الثقافي للجماعة المشاعية
غالبا ما كانت تشوبه تناقضات عجلت بإرساء مفاهيم الفرد المستقل، وإلى هذا الحد
اعتبر "أريك فروم" أن الأصل هو الانضواء والذوبان في إطار الجماعة، حيث أننا أو
الذات متصلة بذات الجماعة وهو الأصل والأساس، أما الانفصال وتشكيل كيان
الفردية فيُعدُّ عرضا وأمرًا مستجدا، ومنه تبقى هواجس الحنين للعودة إلى الأصل.

يعتقد "أريك فروم" أن هذا الوضع يتضمن ما يمكنه أن يهدد انتصارات الحرية،
وأن تنقلب ضد نتائجها، وهو ما يجعل الإنسان الحديث في حالة خوف من الوحدة
والعزلة، وتداعيات الاعتراب، وكل ما يشوب الفردية من ضعف، فيميل إلى التنازل
عن هذا التوجه المتحرر ويشجع وجوده ضمن أطر اجتماعية تنصاع وتخضع لإرادة
تعبّر عن قدرتها لتوفير الحصانة والمنعة، واحتضان هذه الفرديات القلقة والخائفة

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
من المجهول القادم ، وهو في كل ذلك يعتقد أن الإقبال على فضاء الحرية، أو الخوف
منه والتنازل عنه مرتبط بخصائص الفرديات ونضجها الذهني وحياتها الانفعالية .
إذن « فإن للحرية معنى مختلفا عن المعنى الذي كان لها قبل الوصول إلى هذه المرحلة
من التطور »¹⁸ ، أي أن الفرد كان يشعر بالحرية ضمن انتمائه إلى جماعته الأصلية،
ويتناغمه مع طبيعته أيضا، ومثل هذه الروابط التي تنشأ وتحدد وجود الفرد داخل
جماعته جد وظيفية، فهي تمنحه الأمان ومعنى للوجود، وهو ما يبرر شوقه لهذه
الحرية.

إن الإمام بتأصيل دقيق لمسألة الحرية يتطلب تدقيقا مركزا، يتبع مراحل التطور
الذي عهدها الإنسان الحديث، وقد لجأ "أريك فروم" إلى ترتيبات هذا الاستقراء
بتقسيم مراحل التطور إلى حقب وحلقات تكاد تقترب من العنصر التاريخي، حيث «
تتضمن المرحلة الأولى لتطور الإنسان الغربي الحقبة الزمنية ما بين 1500 قبل الميلاد
إلى بداية التاريخ الميلادي، وتتميز هذه المرحلة بانتقال الإنسان من عبادة الأوثان إلى
الدين الإنساني »¹⁹ . حيث كان إنسان الجماعة المشاعية البدائية مرتبطا ومنضويا
ضمن إطار جماعته بكل ما تملكه من مكونات ثقافية نوعية، ويعني "أريك فروم"
بالوثنية ذلك « الشكل من بحث الإنسان التوحد مع العالم، بحيث يرجع إلى
الطبيعة، إلى حيوانيته الخاصة ليستسلم لها»²⁰ . ونميز هنا توجُّهين اثنين: لجوء الفرد
الوثني إلى جماعته وطبيعته طواعية وهو فعل حر يعكس العودة إلى الأصل أو ما
يعتقده كذلك، كما هو الشأن في المعتقد البدائي الطوطمي، وتوجه آخر - يتجه عكسا
- يتم فيه الانسلاخ من وضع وثني سابق إلى اعتقاد ديني إنساني جديد، وهو كذلك
يبدو فعلا حرا متوجها نحو آفاق المستقبل لارجعية فيه وقد يفقد الفرد بذلك أمانه
المعهود، ليشرع في إرساء فردية جديدة مترددة، معتنقة لأفكار مغايرة.

وبذلك يكون ميلاد النزعة الفردية متشعبة بمتطلبات الحرية، التي يصفها "أريك
فروم" مجازا بعلاقة الطفل بأمه، ف « الطفل يولد عندما لا يعود متحدا مع أمه،
ويصبح ذاتية منفصلة عنها. ومع هذا، بينما يكون هذا الانفصال البيولوجي هو بداية
الوجود الإنساني الفردي يظل الطفل- وظيفيا- متحدا مع أمه لفترة طويلة »²¹ . غير

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "إريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
أن ما يبقى هي تلك الروابط الوظيفية بين الأصل والفرع، أي بين الأم والولد، ويذكر
أن هذه الروابط تزود الولد بمشاعر الأمان، وفي هذا التشبيه تحديد لمقولي الأصل
والفرع والجماعية والفردية، في حين تتوسط الحرية المعادلة التي تقود إلى تشكل
الفردية، ثم تداعب أفكار تحقق الذات مراحل التطور التي يعرفها فرد الجماعة
المشاعية البدائية، أو الطفل في انفصاله مع أمه.

ومنه فإن "إريك فروم" يرى الفرد والطفل وكأتهما يحتفظان باستمرار بالحنين
المفقود، خاصة بعد آلام الوحدة أو العزلة وتزيد مواقف التنافر بين الفرد والجماعة
الجديدة هذا الشوق إلى الحرية، كما أنه يريد أن يؤكد أمراً أساسياً، أن الحرية
ليست بالصورة التي يعتقد أنها تتطلع لتحقيق مطلب فطري، بل يضع الفرد بين
قابليته لطلب الحرية: أي المضي سعياً لتشكيل ذات أقوى وأكثر أماناً أو العودة إلى
أحضان الأصل حيث الجماعة توفر الأمان المفقود وهو ما يسميه خضوعاً. وفي
الحالتين يبقى مطلب الحرية الدافع إلى الاختيار. بهذه الكيفية يمتد "إريك فروم" في
تحليلاته لتأكيد أن الحرية حالة فردية يعيشها الإنسان، ويتصورها حسب نمط وعيه
وحسب نتائج انفعالاته، ليصل إلى أنها ليست مطلباً فطرياً، وإلا اعتبر الخضوع كذلك
نزوعاً فطرياً، وقد استشهد بكثير من الأدلة بداية بالفئات التي لا تكثر لوجود عالم
تسوده الحرية، أو الأفراد الذين يتنازلون عن جل حقوقهم لصالح فرد يصفونه
بالزعيم يكفل لهم الأمان المفقود، وهي فكرة تواتر حضورها عند رواد نظرية العقد
الاجتماعي والتي وصفت بأكبر أكذوبة سياسية ناجحة.

4- الحرية والفعل الحضاري

في مقارنة بين السلوك الحيواني والسلوك البشري خلص "إريك فروم" إلى تأكيد
قدرة الحيوان على التكيف بفعل الغريزة، في حين اعتبر الإنسان أدنى تجهيزاً بآليات
التكيف الغريزي ليؤكد فكرة اعتماد الإنسان على نشاط التعلم، وهو الأداة الموظفة
في تشكيل الفردية، وتحقيق تطلعاتها، هذا النشاط المتجدد يمنح إمكانات تجاوز
الكثير من الموانع، أو هو نشاط (للتحرر من) ويقيم ربطاً بين هذا الضعف البيولوجي
الغريزي والفعل الحضاري، حيث يقول: «إن الضعف البيولوجي للإنسان هو شرط

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أ.جمال براهيمة
الحضارة الإنسانية»²². غير أن بناء الحضارة قد يصادر الفعل الحر وقد اعتقد
"فروم" « أننا لسنا على الطريق المفضي إلى المشروع الحر، بل إننا نتحرك بسرعة
مبتعدين عنه. إننا لسنا على الطريق المفضي إلى النزعة الفردية الأعظم، بل إن
حضارة هائلة إنما تستغلنا»²³.

كما يعتقد أريك فروم أن الخوف من كل ما يمثل ممارسة للتسلط على الفرد،
ويملي عليه جملة الضوابط والحدود، وما ينجر عنه من توتر يوصف بحالات الرهاب
النفسي، هذا الوضع يحمل الإنسان للبحث عن حريته كرد فعل، حيث يقول: « هذا
الرهاب هو حالة يعبر عنها الوعي على أنها رغبة بالحرية، وتحديدًا بالحرية الكاملة
لاتخاذ القرار»²⁴. لكن مثل هذا التصور قد يفقد الحرية مدلولها الأصيل، فلا يجب
أن تقرن بردود أفعال تدعونا إلى التحرر، وإلا اعتبرت استجابة مشروطة، مع العلم
أن "أريك فروم" انطلق من اعتبار الحرية محاولة لتأكيد الذات حيث يقول: « لكننا لا
نقدر على استيعاب السمة العاطفية للرغبة بالتحرر، ما لم نأخذ بعين الاعتبار أن
هذه الرغبة ذات جذور ضاربة ضمن رغبة وجودية قوية: وهي الحاجة إلى تحقيق
الذات، لا أن تكون وسيلة لتحقيق غايات الآخرين»²⁵. وهي كذلك عند "هربرت
ماركوز" تعني « قدرة الإنسان الفرد على أن يسلك من تلقاء ذاته، دون أن يقع عليه
أي ضغط خارجي»²⁶.

تبقى الحرية مطلبًا متجددًا، تفرزه أوضاع اجتماعية، سياسية واقتصادية،
تمارس إكراهها على الفرد فينطلق نحو فعل الحرية وتتحول هذه الرغبة إلى الحرية
حسب درجة الإكراه إلى شوق لها، وعلى درجة وعي الفرد، وسمو ذهنيته، وصدق
انفعالاته يتحول الشوق إلى وازع ودافع لتجسيد فعل التحرر كبديل يتحقق من خلاله
ما يجب أن يكون، وليصح وضع الواقع القائم، وعليه تبقى مساهمة "أريك فروم"
ذات دلالة محورية لفهم الشوق إلى الحرية لدى بعض الأفراد، أو الإعراض عن ذلك
لدى البعض الآخر بعيدًا عن الطرح الميتافيزيقي بين النفي والإثبات، أو الطرح
الواقعي الماركسي الداعي إلى التحرر، والمضي قدما نحو تسخير الطبيعة لخدمة

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أ.جمال براهمة
الإنسان، فمحاولة "أريك فروم" تنير زوايا مغفلة حول مسألة الحرية، خاصة
الخصائص الذهنية والانفعالية التي تتميز بها كل فردية.

ثانياً: الحرية عند "هربرت ماركوز"

1- الحرية المتاحة: يتميز النظام العام في المجتمع الصناعي المتقدم بقدرته على
توجيه كل النشاطات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فهو نظام مغلق، وإدارته
تحكم التسيير، ورقابته مطلعة على دقائق الأمور وإيديولوجيته السيطرة، فكل
المبادرات توجه نحو تثبيت ما هو قائم حيث لا يسمح لاحتمالات التغيير أو إحداث
اهتزاز في الاتجاه العام لكل النظام، وقد بلغ هذا الترتيب إلى حد أن لا مجال لإفلات
احتمالات غير متوقعة تخالف مسار نمط الحياة المشكل، ولا سبيل لرفض نظام
الأشياء القائم، وقد أمكن لهذه العقلانية أن توفر جميع الضروريات والحاجيات
وبصورة يطبعها الرفاه والوفرة « ومن ثم فإن إنجازات نظام السيطرة تبرر هذا
النظام، ويتبنى الأفراد القيم القائمة باعتبارها قيمهم هم بالذات، ويصبح التوافق
تلقائياً مستقلاً نابعا عن الذات وتبدو إمكانية الاختيار بين عدة ضرورات اجتماعية
هي شكل الحرية نفسها »²⁷. بهذه الكيفية يكشف "ماركوز" صورة الحرية في إطار
مجتمع محكم التنسيق، لا يترك للإنسان إلا أن يختار ما يريده المجتمع، فهو المسؤول
عن توفير احتمالات الاختيار وكأن الأمر يعكس جبرية خفية، تحركها إرادة تنتهي إلى
جعل كل اختيار ليس إلا تعبيراً عن عبودية مقنعة يفرضها المجتمع القائم على
الإنسان، « فما كان في السابق استعباد بالقوة أصبح "استعباد إرادي" »²⁸.

فناطق الحرية المتاحة لا يتجاوز الاختيار بين الأدوات التي تنتجها التكنولوجيا،
وبذلك فإن هذا النمط من الحرية موجه ويكون الإنسان فيه وأهما عند كل اختيار»
فأين يجد الفرد وسيلة للتعبير عن تقرير مصيره وعن استقلاله الذاتي؟ في حق قيادة
سيارة في تناول المعدات الميكانيكية وتقليها بين يديه، في شراء بندقية، أو في أن يبلغ
عددا ضخماً من المستمعين برأيه مهما كان في هذا الرأي من عدوانية²⁹. فإذا كانت
الاختيارات قد ضببت سلفاً وبشكل يضمن انسجامها مع مبدأ الواقع القائم، كما
يحقق اندماج الفرد ضمن مسار المجتمع، فلا يعكس ذلك إلا مجالاً تنعدم فيه

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة الحرية. ولأن ظاهر الأشياء يحتضن نقيضا مستترا، فإن ما يحياه كل فرد من اختيارات ليس إلا وهما«فالرقابة الاجتماعية الضمنية توجه الفرد نحو غايات محددة، لا يمتلك حريته في استبدالها وإذا كان له أن يختار فحريته تتمثل في الاختيار من تشكيلة ممحصّة ومقررة ومفروغ منها، وسيكون اختياره في التحليل الأخير نوعا من الخضوع والعبودية»³⁰. وتبرز هنا صورة الحرية المتاحة في ظل النظام القائم، بحيث لا تعبر عن حقيقة الحرية بل تعكس وهما فحسب.

2- وعي زائف وحرية وهمية : لقد رأى "ماركوز" أن الإنسان لا يعي قيوده، بل العكس هو السائد، فهو يتوهم أن اختياراته نابعة عن إرادة واعية وحرّة وتدرّك الغايات، في حين أن كل عناصر تكوين شخصيته قد تمّ تنميطها وتشكيلها على الطاعة العمياء، التي ألفت الأنهار أمام منجزات هذا المجتمع، وامتد ذلك ليشمل كل غرائزه من ميل النفس الشديد إلى ما تحبه وترضاه، وحتى شعوره النفسي الهادئ الذي تتحدد به عواطفه، وفي كل هذا التحوير تختفي المظاهر المعهودة التي تمارس المنع « ومن ثم فإن التقدم الرأسمالي لا يقيد البيئة الحرة و" الحيز الحر" للوجود الإنساني، فحسب، بل هو أيضا يقيد " الرغبة " في مثل هذه البيئة، والحاجة إليها»³¹. تقود تحليلات "ماركوز" للمجتمع الصناعي المتقدم والتي أبدى من خلالها حجم اللاعقلانية، والأنموذج أحادي البعد الذي يخدم مبدأ الواقع، وما لمقولات السيطرة والهيمنة من قدرة على النفاذ إلى أعماق الحياة الإنسانية، وقدرة النظام القائم على التخفي والإقناع من خلال الوفرة ونمط الحياة الاستهلاكي، إلى رؤية "ماركوز" لموضوع الحرية وانعدامها بهذا المجتمع، وأن التنميط والتشكيل المستمر لوعي الإنسان جعل منه وعيا وهما وزائفا. حيث أصبح ما هو قيد يعكس مناخ الحرية والاختيار، ولذلك يتطلب الأمر تحليلا أكبر لمعرفة حقيقة الحرية في التصور الماركوزي وحقيقة الحرية في إطار المجتمع الصناعي المتقدم بين الوهم والحقيقة، و« لأن المجتمعات الصناعية المتقدمة وليدة الايدولوجيا والتدجين، فهي تخفي حرية بائسة »³².

تعمل تحليلات "ماركوز" النقدية على اكتشاف مواطن الزيف والتناقض في كل ممارسة احتواء أو تنميط لحياة الإنسان ويكفي أن دافع إيديولوجية المجتمع

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
الصناعي المتقدم هو إحكام السيطرة، لإدراك أن مظاهر الحرية الفردية والعامّة
ليست إلا ما يسمح به. ومنه فتصوّر "ماركوز" لموضوع الحرية متضمن في انتقاداته
لمظاهرها ضمن ما هو قائم وإذا كان "ماركس" يعتقد أن الواقع هو الذي يحدد الوعي،
فإن وقع هذا الاستنتاج يجعل "ماركوز" يدرك مدى انعدام الحرية في المجتمع
الصناعي المتقدم، حيث الفكر التوتاليّتاري قد هيمن وسيطر على كل مظاهر الحياة
الفردية والجماعية، وأن الوعي المتاح لا يزيد إلا في ترسيخ وهم الحرية، ويمنع القدرة
على إدراك مفاهيم الحرية الحقّة. ومنه يغدو تأمل واقع الحرية ضرورياً ومشروعاً، وأن
من وظيفة التفكير الفلسفي اكتشاف ذلك، «فإنسان المجتمعات الصناعية المتقدمة
يعرف حرية خادعة و"تعيّسة". فلا توجد في النظام الاجتماعي والسياسي القائم حرية
حقيقية»³³. وفي ذلك تأكيد صريح على أن ما يحياه الإنسان ضمن هذا المجتمع
يترجم حرية زائفة وتعيّسة، ويكشف "ماركوز" بذلك أن ما يعيشه الإنسان من
اختيارات ليس إلا ما أراده المجتمع القائم، فينبغي إذن أن ينظر إلى الوضع القائم
ك مجال لمعرفة الشروط البديلة والحقيقية للحرية.

2- كميّات تزيف مطلب الحرية: لقد بحث "ماركوز" بشكل عميق عن مظاهر
الوهم بالحرية، وربطها بالإيديولوجية السائدة في المجتمعات الأكثر تقدماً، كما ربطها
بالإطار العام لطريقة تنظيم الشغل، لأن «الايديولوجيا التي تفهم كتمثيل خفي
للنظام الحقيقي موجودة بطبيعتها في شروط العمل التي يحددها المنتجون. حيث
الإنسان كائن مغترب يبطن عبوديته الخاصة سواء الاجتماعية أو السياسية»³⁴.
ومنّه فإن أدوات العمل وصورته التي نظم بها، تكشف مدى اغتراب الإنسان عن
ذاته، وعن وسائل الإنتاج، وهي فكرة تتقاطع وأراء ماركس فالاغتراب دليل يضاف إلى
إبراز عبودية الإنسان لنظام الأشياء القائم. وفي عرض لواقع المجتمع الصناعي
المتقدم، أكد "ماركوز" خضوع الإنسان لمبدأ الواقع الذي يغيره بتقبل وضعه، وتقبل
الوضع القائم في الوقت نفسه، لما يجنيه من نفع، فهناك عناية بتجديد نمط الحياة
الاستهلاكي باستمرار، وهو ما يبقى الإنسان حبيس الاستهلاك، وتصبح حرّيته في
الاختيار بين أنواع السلع المعروضة، لذا شبه "ماركوز" هذا الوضع بالعبء الذي يختار

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "ريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
سادته، فهذه الصورة لا تعبر عن حال للحرية بل صورة زائفة لها ووعي واهم،
فصورة الإنتاج إذن تلغي حرية الإنسان كما يلغي نمط الاستهلاك قدرة الإنسان
الأصيلة على الاختيار، لأن « إنسان المجتمعات الصناعية المتقدمة يقبل بظرفه: حيث
يشارك في التماسك الاجتماعي الذي بواسطته يحصل على مكافآت اقتصادية
تعويضية وببساطة أكثر. إن بنية الاستهلاك قد تم تحويلها إلى حد كبير، بحيث
يكون النفع عاما يتعدى كل إرادة تجاوز للنظام الاجتماعي المسيطر»³⁵.

وقد لاحظ "ماركوز" اعتماد إيديولوجية المجتمع الصناعي المتقدم آليات لتبرير
ضرورة القمع، كتحقيق أهداف ضرورية للصالح العام خاصة الجانب الأمني والدفاع
عن نظام الحياة الذي يوفر لهم الرفاه، أو محاربة أعداء يتم تحديدهم مع الإبقاء
على شبح الحرب حاضرا دائما فتوقع الخطر في هذه الحالة يوهم وعي الإنسان
بضرورة القمع ومشروعيته، لكنه يفقد مع هذا الوهم حريته تحت الاقتناع بأن
التهديد حقيقي وما الحرب إلا شبحا، وبذلك « وفي كل مجهود يبذل لخلق شروط
رفض فعال للنظام، ينبغي الحذر من تناسي الحقيقة الواقعة العارية التالية وهي أنه
ليس في استطاع أي فرد أو أي فئة أن يكونا حريين في مجتمع غير حر»³⁶. فالمجتمع
الذي يبيع القمع ويستبيح الإنسان، هو مجتمع بعيد كليا عن ادعاء توفير مناخ
الحرية، وقد حرص "ماركوز" على إبراز ذلك، وما تبني عقلانية السيطرة والتخفي خلف
فعالية مبدأ المردود، القدرة على الإنتاج الوافر الذي يلبي متطلبات الإنسان
المتجددة، إلا أدلة تضاف إلى الواقع الذي تسلب فيه الحرية باسم الحرية، وشتان
بين الواقع والادعاء هذا الأخير الذي أضحى تقليدا تحسن تسويقه وسائل الإعلام التي
تمنح مشروع الهيمنة الدعاية الكافية بإبراز محاسنه الموهومة، غير أنها في تصور
"ماركوز" وسائل سيطرة، لأن « المجتمع الصناعي المتقدم يمكن أن يكون مجتمعا
يتمتع بأرفع المستويات المعاشية إلا أنه سيبقى مجتمع السيطرة الكلية فالزيادة في
الإنتاج سوف تبقى مقرونة بفقدان الحرية»³⁷.

إن إدراك تصور "ماركوز" لواقع الحرية المتاح يحصل بالعودة إلى ممارسات
عقلانية المجتمع الصناعي التي تعمل على التشكيل المستمر لأبعاد الوجود الإنساني

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
بحيث تنتهي إلى مصب واحد هو الاندماج والانسجام مع الوحدة الكلية للنظام العام
في المجتمع» فالفرد، كما يستنتج ماركوز، ليس له في المجتمعات الغربية معياره
الخاص في الاختيار، شأنه شأن العبد الذي له الحرية فقط في اختياره سيده، وحرية
الاختيار هذه لا تلغي لا السادة ولا العبيد، إنما هو محكوم بقوة الرقابة التي تطرح
أمامه الحاجات التي انتقيت وإذا كان الفرد يحدد تلقائياً الحاجات المفروضة عليه،
فهذا لا يعني أنه سيد نفسه وإنما يدل فقط على الرقابة الناجحة»³⁸.

يبدو أن واقع المجتمع الصناعي يكشف بذاته وبوضوح، أن ما يعتقد أنه حرية
للفرد هو في الواقع بؤسه ومعاناته، لذلك أقام "ماركوز" تمييزاً بين ماهو واقع وما
يجب أن يكون، فالواقع تأكيد على انعدام الحرية، واستشرافه للبديل صورة للتحرر
إن أمكن، وهو السبيل الذي يقود إلى فضاء الحرية، التي تمثل الوجود ما بعد قيود
المجتمع المتعددة، وأقواه القيد الاقتصادي الذي يرتكز على مبدأ المردود، وعليه فإن»
امتلاك الحرية الاقتصادية يجب أن يعني التحرر من الاقتصاد ومن الإكراه الذي
تمارسه القوى والعلاقات الاقتصادية، التحرر من النضال اليومي في سبيل الحياة،
عدم اضطراب الإنسان بعد الآن إلى كسب حياته»³⁹. إذ من الضروري تصحيح التوجه
العام لخدمة الإنسان كما أن "ماركوز" يوسع في دائرة التحرر من زيف الواقع الذي
يوهم الإنسان بالحرية ليشمل الواقع السياسي والفكري أيضاً حيث يقول: «امتلاك
الحرية السياسية يجب أن يعني بالنسبة للأفراد أنهم قد تحرروا من السياسة التي
ليس لهم عليها من رقابة فعلية وامتلاك الحرية الفكرية يجب أن يعني إحياء الفكر
الفردى الغارق حالياً في وسائل الاتصال الجماهيري الواقع في إفسار التكييف
المذهبي»⁴⁰. لتتضح رؤية ماركوز لواقع الحرية السياسية والفكرية، فبالاعتماد على
مبدأ الواقع فإن الحرية المتاحة لا تعدو أن تكون زيفاً وقيداً، لأنها واقعة تحت الرقابة
والسيطرة والتكييف المذهبي، أما بالاعتماد على مبدأ ما يجب أن يكون فالعملية
تتطلب بديلاً أكثر مصداقية وأصالة لممارسة الحرية الحقيقية.

ولعل فهم تصور "ماركوز" للحرية، يقتضي ضرورة الانتباه إلى خيوط رفيعة تربط
بين مبدأ الواقع الذي حددته عقلانية المجتمع القائم، ومبدأ ما يجب أن يكون الذي

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "ريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
يكشف تطلعات "ماركوز" واستشرافه لواقع أمثل، يتجاوز البعد الواحد المائل في
الواقع، ومن الضروري أيضا الفصل بين تحليل "ماركوز" للواقع القائم وانتقاده إياه
فالأول كاشف، أما الانتقاد فيتضمن جوهر أفكاره. لذا جاء موقف "ماركوز" من
نموذج الحرية التي تسمح به عقلانية السيطرة موقفا رافضا، فليست الحرية في
اختيار ما تم تحديده، بل هي اختيار بطوعية واستطاعة فعلية، أو بمعنى آخر « إن
الحرية المنظمة من قبل مجموع اضطهادي، يمكن أن تصبح أداة سيطرة قوية.
فالحرية الإنسانية لا تقاس تبعا للاختيار المتاح للفرد وإنما العامل الحاسم الوحيد في
تحديدها هو ما يستطيع الفرد اختياره وما يختاره»⁴¹.

يقيم "ماركوز" ربطا بين نموذج الحرية المتاح في المجتمع الصناعي وكونه أداة
سيطرة، وبذلك فإن اختيارات الإنسان ليست نابعة من إرادة حرة، بل موجهة
ومحددة؛ ولأن عامل التوجيه والتحكم والسيطرة قائم، فإن ما يبدو حرية ليس إلا
عبودية مقنعة، وبضيف "ماركوز" أيضا أن « قدرة المرء على اختيار سادته بحرية لا
تلغي لا السادة ولا العبيد. والاختيار بحرية بين تشكيلة كبيرة من البضائع والخدمات
لا يعني أن المرء الذي يختار هو كائن حر مادامت الرقابات الاجتماعية تثقل بوطأتها
على حياته الكادحة القلقة ومادام هو نفسه مستلبا»⁴². حتى وإن عرضت صورة
الإنتاج التي تفضي إلى تحقيق الوفرة، وتوفير ضروريات الحياة على أنها مظهر من
مظاهر الحرية، إلا أن الزيف الذي يطبعها أكبر من أن يدارى، فالتعمق في معرفة
أبعادها يجد أنها تصادر الحرية، ومنه يصبح مناخ الحرية المتاح زيفا وقيدا. «أما
أولئك الذين يحتلون مكانهم في صميم مجتمع الوفرة فإنهم محبوسون فيه بوحشية
تعيد إلى الأذهان أساليب القرون الوسطى وما بعد الوسطى أيضا، أما ما عداهم
ممن هم أسعد حظا، فإن المجتمع يرد على حاجتهم إلى الحرية لتلبية الحاجات التي
تجعل العبودية محتملة بل غير منظورة. وهذا يتم بفضل صيرورة الإنتاج»⁴³.

4- حال الفن مؤشر لغياب الحرية: يبحث "ماركوز" واقع الحرية في المجتمعات
الصناعية بعمق أكثر، ليخلص إلى أن حال الفن يعبر عن غياب الحرية ف"ماركوز"
يتأمل مختلف أبعاد وجود الإنسان ليس فقط علاقة الإنسان بالترتيبات السياسية

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
والاقتصادية والاجتماعية. بل أيضا في المجالين الثقافي والفني، لينتهي إلى التأكيد أن
المظهر السائد لا يعبر عن مناخ للحرية بالقدر الذي يعبر عن نقيضه، حيث يقول: «
يعكس استقلال الفن الذاتي غياب حرية الأفراد في مجتمع غير حر. فلو كانوا أحرارا،
لكان الفن هو شكل حريتهم وتعبيرها»⁴⁴. وهكذا يرى "ماركوز" أن جنوح الإنسان نحو
الفن الذاتي حجة للتأكيد على عدم توفر الحرية، كما يجد "ماركوز" في تحول قدرة
التكنولوجيا من السيطرة على الطبيعة إلى السيطرة على الإنسان، دليلا آخر لوصف
الحرية المتاحة بالزيف، « ذلك أنه في الوقت الذي تشدد فيه التكنولوجيا قبضتها
وهيمنتها تدريجيا على الطبيعة نجد أن الإنسان يشدد قبضته وهيمنته تدريجيا على
الإنسان. وبذلك يخسر الإنسان الحرية التي هي الشرط الضروري المسبق للتحرر»⁴⁵.
ويخلص "ماركوز" في تقييمه لانجازات المجتمع الصناعي إلى نتيجة أن الحرية التي
استطاع تحقيقها لا تعبر عن حرية حقيقية بل هي مظهر لحرية بائسة « فقد حقق
هذا المجتمع لأفراده سعادة هشة، مجرد قشرة رقيقة تحوي الخوف والقلق
والتعاسة. فقد الإنسان المعاصر في ظل هذه السعادة المزيفة حريته كما فقد وعيه،
بما ينبغي عليه أن يرفضه»⁴⁶.

وينتهي "ماركوز" إلى اعتبار الوضع العام السائد في المجتمع الصناعي وضعاً لا
يعكس فضاء الحرية المطلوبة، وأن ما يروج له ليس إلا زيفا ووهما، وتحويرا ضبطته
عقلانية السيطرة، وتبرير ذلك وجود نظام إداري مغلق يشرف على تسيير كل مجالات
الحياة، وما شروط العمل وصورته حيث الإنسان العامل يعيش اغترابا مع الذات
ومع وسائل الإنتاج إلا تعبيرا كافيا عن غياب الحرية، كما أن النمط الاستهلاكي الذي
يطبع الحياة الفردية والعامة وآليات القمع المستترة عوامل تمنع من الجزم بوجود
تجربة حرية حقيقية، مما جعل "ماركوز" يرى أن غيابها يتناسب طردا مع زيادة
الإنتاج، ولأن تحويرا كبيرا لحق مجالات الحرية الاقتصادية والسياسية والفكرية
جعلها تنسجم مع مبدأ الواقع الذي يتناسب مشروع الهيمنة والسيطرة الكلية، جاء
موقف "ماركوز" صريحا من موضوع الحرية، فهي كحرية العبد الذي يملك القدرة
على اختيار سادته فقط، وهي حرية خادعة وبائسة، وتفقد معناها مادامت

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
الاختيارات قد ضبطت سلفا. « ويتضح من كل ما سبق أن الحرية لا يمكن أن
تدرك إلا في صميم الفعل الذي به تمارس ذاتها وتخلق وجودها »⁴⁷.

ثالثا- التحرر مهمة خارج النظام

1- تطلعات أريك فروم: تؤكد لدى "أريك فروم" ارتكازا على مقولة التقدم أن
السبيل إلى الحرية قد رافقه الكثير من النجاح، فقد « أطاح الإنسان بسيادة الطبيعة
وجعل نفسه سيدها، لقد أطاح بسيطرة الكنيسة وسيطرة الدولة المطلقة المتسلطة.
ولا يبدو أن القضاء على السيطرة الخارجية شرط ضروري فقط بل هو شرط كاف
أيضا للحصول على الهدف المنشود: حرية الفرد »⁴⁸. ولأن المحقق على أهميته لا
يتجاوز دوائر النسبية والمحدودية، ظل التطلع إلى عالم أكثر حرية مطلبا ملحا عند كل
حين، وارتدادا تجاه كل وضع يشوبه الاستلاب والاستغلال، فانعدام الحرية شائبة تهز
مدلول الكرامة الإنسانية في بعدها الأخلاقي، وهو ما يجعل الحرية مطلبا متجددا على
مستوى الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية، يرافقه البحث المستمر عن فهم
أسباب العطل التي تعيق تحقق هذا العالم الواعد بالحرية، وعن مظاهر النكوص
التي ترافق هذا المسعى، وكأن مطلب الحرية قد فقد فاعليته، وهو ما سعى "أريك
فروم" لفهمه من خلال « تحليل العوامل الدينامية في طابع نسيج الإنسان الحديث
التي جعلته يرغب في الكف عن الحرية في الدول الفاشية »⁴⁹. وهي محاولة تبتعد عن
الطرح الميتافيزيقي سجين النفي والإثبات، وانتقال إلى تأمل وتحليل للعوامل
المستجدة التي حولت الإنسان عن تطلعه التقليدي، أي التطلع إلى فضاء أكثر حرية،
ويتواتر حضور هذا التحليل في مواطن عدة من كتابات "أريك فروم"، خاصة في كتابه
المجتمع السوي أين « يحلل فروم المجتمع الصناعي الحديث- بنسخته الرأسمالية
والاجتماعية- ويخلص إلى أن المؤسسات البيروقراطية الميكانيكية تتسبب في تجريد
الإنسانية من صفاتها، وتؤدي إلى الاغتراب عن الذات »⁵⁰. مبتعدا بذلك عن الإشادة
بانجازات الحداثة ومؤسساتها، ومركزا على تفحص حال الصحة النفسية للأفراد
والجماعات ضمن هذا الإطار الحضاري المتسارع والمتشابك، من حيث الإنتاجية
والمردود فالتحول نحو التركيز على مبدأ المردود لا يتناسب من حيث الاهتمام بحال

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
الإنسان، ومختلف التغيرات التي تلحقه نتيجة التركيز على وفرة الإنتاج، وتحقيق رفاه
متزايد.

يعتقد "أريك فروم" أن «الممارسة الكلية للحياة- في العمل، وفي الأسرة،
وكمواطن، وفي النشاط الثقافي- تؤثر في تنمية الشخصية. فالتنمية الإنسانية تتطلب،
فوق كل شيء، مجتمعا يلبي الحاجة إلى الأمان والعدالة والحرية- ليس فقط التحرر
من الاستغلال والطغيان، ولكن أيضا حرية المشاركة بنشاط وبمسؤولية من أجل
الخلق والبناء»⁵¹. هذا الإلحاح على إعادة الاهتمام إلى محور العملية الحضارية أي
الإنسان، اهتمام يتردد حضوره لدى أقطاب مدرسة فرانكفورت، استشعارا منهم
بأهمية المرحلة، وحاجة مشروع الحداثة إلى تقويم يعيد الإنسان إلى بؤرة الاهتمام»
فمشكلة الزمن الحديث هي المحافظة عن الذات في الوقت الذي لم تبق هناك ذات
للمحافظة عليها. واعتبارا لهذا الواقع يتعين التنازل عن موقع الفرد في المجتمع
الحديث واستقصاء طبيعة انشطاره الوجودي الذي ولدته مفعولات الحداثة
والعقلانية⁵² « وقد استعان "فروم" بآليات التحليل النفسي الفرويدي منتقلا بها من
دائرتها الضيقة التي تقتصر على دراسة فرديات معزولة ليجعل منها آليات موجبة
لفهم ظواهر اجتماعية، وإيمانا منه بضرورة البحث عميقا عن الأسباب التي تجعل
الإنسان يتحول عن مطلب الحرية والأسباب التي تجعل نزوعه نحو التدميرية التي
تصادر كل إمكانات الحرية والتحرر، موجها اهتمامه على الأكثر لمعرفة العوامل
النفسية مع التركيز في إبراز دورها الفعال الذي لا يجب أن يستبعد في فهم ما يحصل
من تحولات في الحياة الاجتماعية والسياسية.

لقد اهتم "فروم" بدراسة هذا التحول كإفراز لعوامل موضوعية فرضتها لحظة
الحداثة، مذكرا أن «تحليل الجانب الإنساني للحرية ولقوى النزعة التسلطية
الشمولية يرغمنا على النظر في مشكلة عامة ألا وهي: مشكلة الدور الذي تلعبه القوى
السيكولوجية كقوى نشطة في السيرورة الاجتماعية، وهذه تفضي بنا إلى مشكلة
تفاعل العوامل السيكولوجية والاقتصادية والايديولوجية في السيرورة
الاجتماعية، وأن أي محاولة لفهم الجاذبية التي تمارسها الفاشية على الأمم الكبرى

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
يجبرنا على تبين دور العوامل السيكولوجية⁵³. وهذا من تقاليد مدرسة فرانكفورت
حيث يسند لكل منتسب بحثاً يتناسب مع توجهه، ف"أريك فروم" عمل على إسقاط
مقولات "فرويد" على الواقع الاجتماعي والسياسي طلباً لإجابات تفسر توق الإنسان إلى
الحرية، أو هروبه منها، وفي الحالتين هناك نماذج تنسجم نفسياً مع قطبي الحرية.
بحث "فروم" في أسباب النزعة التسلطية والتدميرية لدى الإنسان لإدراكه أن
التغيرات الحاصلة مع التطور العلمي والتقني قد أفرزت تغيرات عميقة في الذات
الإنسانية، ومع «تعقد ظروف العالم المعاصر: سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، تزايد
اللجوء إلى الحروب لحل المشاكل العالقة، كما أن القوى الطاغية زادت من طغيانها
وطورت في أساليبها، لدرجة أصبح معها من الضروري أن نبحث في ماهية الحروب
والنزعة العدوانية للبشر. وما يزيد الأمر تعقيداً أن العلم اليوم أصبح خادماً لآلة
الحرب، وأن السياسة لا تفعل أكثر من تبرير الحروب، وأن الاقتصاد لم يعد له من
عمل سوى تأمين ميزانية الحروب»⁵⁴. فهذه التغيرات الكبيرة أعادت سؤال الحرية إلى
بؤرة الاهتمام على المستوى الفكري والاجتماعي والسياسي، فهذا المنحى التدميري
العنيف الذي يغترف من غريزة الموت يستوجب الالتفات إليه، لفهمه وتصحيحه،
خاصة وأن النزوع نحو حلول الحرب والعنف ترافقها ايديولوجيا تسيق عديد
التبريرات لتؤكد سلامة هذا التوجه، كما أن «هناك من اعتبرها الطريق الحقيقي
للحرية والسلم أو العدالة، فالحروب اليوم تشن بحجة نشر الديمقراطية (الحرب
على العراق)، وبحجة الدفاع عن النفس (الحرب الأمريكية على القاعدة)، بل إن
هناك مصطلحات غريبة بدأت تظهر كـ "الحرب العادلة" و "الحرب الاستباقية"⁵⁵.
ولأن الحرية موضوع متجدد فقد أراد "فروم" كشف أغواره من خلال فهم التفاعل
الحاصل بين الدوافع النفسية والمتغيرات الثقافية والاجتماعية، ومثل هذا الانشغال
يحضر بتواتر عند "ماركوز" و"هابرماس" وغيرهما من رواد الجيل الأول والثاني لمدرسة
فرانكفورت، مع وجود تقاطع وتماس حول تحليل مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية
والسياسية.

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة

2- يوتوبيا التحرر عند ماركوز: يقيم ماركوز تصوره للحرية على أساس مشترك بين جميع الناس، أساس لم ترد الإشارة إليه في تصورات ماركس، وهو الأساس البيولوجي، حيث أنه « لكي يمكن للمجتمع القائم أن يتحول إلى مجتمع حر، عن طريق تغيير راديكالي، ينبغي أن يصل هذا التغيير إلى بعد للوجود الإنساني لا يدخل إطلاقاً في موضع اعتبار النظرية الماركسية: البعد "البيولوجي" ذلك الذي تتعلق به الحاجات الحيوية الأمرة للإنسان، وعملية إشباعها»⁵⁶. غير أن التنميط الذي يمارسه نظام السيطرة قد نال من الطبيعة الغريزية بأن سجنها في سلسلة من الرغبات الزائفة التي تتطلب إشباعات توفرها إنتاجية هذا النظام الذي كثيراً ما يمررها من خلال الإعلان والإغراء، ويمنحها المصادقية من خلال مبدأ المردود، «وطالما كانت هذه الحاجات والإشباعات تستديم وجوداً عبودياً، فإن التحرر يفترض، سلفاً، تغييراً في هذا البعد البيولوجي، يفترض ظهور حاجات غريزية مختلفة واستجابات جديدة للجسم والعقل على السواء»⁵⁷.

يعتقد "ماركوز" أن التغيير الحقيقي يبدأ بتصحيح الدوافع البيولوجية التي تطلب الحاجات الحقيقية لا الزائفة، في محاولة لتخليص الإنسان من استغلالية الزيف الذي يوفره نظام السيطرة، وقد أشار إلى الكثير من الأمثلة التي أفرزها الجهاز الإنتاجي وملحقاته التي تصادر حرية الإنسان، مع إيهام بأن الوضع يعكس تمام الحرية، ولذلك فإن المجتمع الذي تتحقق فيه الحرية الحقة هو ذلك الذي تغيب فيه هذه الاستغلالية المنمقة، لأن « الاختلاف الكيفي بين المجتمعات القائمة وبين مجتمع حر، يتعلق بكل الحاجات وكل الإشباعات التي تقع فوق المستوى الحيواني، أي كل الحاجات والإشباعات الخاصة بالنوع الإنساني»⁵⁸. فمتطلبات الحياة الطبيعية وإن توفرت لا تعبر عن حال للحرية، بل تقاس الحرية بمدى توفر ومعايشة نظام الحاجات والإشباعات الذي يرتبط بوثاقه مع الوجود الإنساني العاقل.

لقد أدرك "ماركوز" أن العلم والتكنولوجيا أدوات تحرر، على الرغم من الانتقادات التي وجهت للمنحى الذي تم توجيهها إليه، حيث يبقى "ماركوز" العلم كإطار نظري، والتكنولوجيا كتطبيق عملي للقوانين العلمية بعيداً عن الإدانة، فما يدان هو

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة

التوجيه السيئ وغير الرشيد لهذه الأدوات، لذلك يتمسك "ماركوز" بهما، حيث إنه « ينبغي للعلم والتكنولوجيا، حتى يصبحا عاملين من عوامل التحرر. أن يعدلا من اتجاههما وأهدافهما الحالية، ينبغي أن تعاد صياغتهما وفقا لحساسية جديدة. وفقا لمقتضيات غرائز الحياة »⁵⁹. فالأساس هو إعادة ترتيب تناغم فيه الأدوات مع الغايات، وعليه يمكن توظيف العلم والتكنولوجيا بالصورة التي تخدم الإنسان فردا أو جماعة، وتمكنه من تجاوز مختلف العوائق الداخلية والخارجية التي تحد من حريته. لذلك يقيم "ماركوز" ربطا وثيقا بين تصورات الحرية والتحرر والثورة، فيعتبر الحرية وهما انطلقا من مبدأ ما هو قائم "مبدأ الكينونة"، يلحقها بإدانة صريحة لعقلانية السيطرة وسلطات الضبط والتحكم، وعلى قدر هذه الإدانة يتصور فعل التحرر الذي يجب أن يكون راديكاليا، وقادرا على الإفلات من إرهابات "مبدأ المردود" الذي راهن باستمرار على الإنتاج الفائض لكم هائل من المنتجات التي تغذي النزعة الاستهلاكية لدى الأفراد، وتنال من طبيعتهم الغريزية بخلق حاجات زائفة لا تنضب، ورأى "ماركوز" أنه من الضروري إحداث تغيير كيميائي يحتفظ بأدوات الإنتاج وبالعلم والتكنولوجيا، وأن يتم استبدال وتوجيه غاياتها نحو عقلانية تعادي القهر والاعترا ب والعدوانية، غايات تنسجم مع غرائز الحياة لا مع غرائز الموت والهدم، وهو ما يتطلب التأسيس على قاعدة بيولوجية، وأن يتم تبني حساسية جديدة وظيفتها الرفض الراديكالي لكل قيود الواقع القائم، فالحرية عند "ماركوز" إمكانية قابلة للتحقق.

رأى "ماركوز" في الفن مجالا مستقلا عن النظام الاجتماعي القائم، كما أنه يملك إمكانية المعارضة الفعلية، والقدرة على نفي الوعي السائد في إطار هذا المجتمع. وهو ما جعل "ماركوز" يقيم تصوره للتحرر على دعامة الفن، حيث يقول: « وأزعم فضلا عن ذلك، أن الفن يتمتع، بمقتضى شكله الجمالي بقدر وسيع من الاستقلال الذاتي عن العلاقات الاجتماعية القائمة. وبحكم استقلاله الذاتي هذا يقف الفن موقف المعارضة من هذه العلاقات، وفي الوقت نفسه يتجاوزها. هكذا يهد الفن الوعي السائد والتجربة العادية »⁶⁰. لذلك يركز "ماركوز" على عامل الخيال كقدرة يجب

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أ.جمال براهيمة
توفرها لدى الحساسية الجديدة، حيث يقول: «ومن خلال الثورات التاريخية الكبرى
اعتق الخيال مؤقتا، وكان بمقدوره أن يبني، بحرية، أخلاقية جديدة وتعبيرا جديدا
لمؤسسات الحرية، ثم ضُحى به باسم العقل على مذبح مقتضيات الفعالية
والكفاءة»⁶¹، ف"ماركوز" يتصور أن كل قدرات الإنسان، وحتى طبيعته الغريزية قد لقت
تأثيرات عنيفة، هي في تقديره قمعا واستغلالا وعدوانية، بما في ذلك قدرة الخيال التي
نال منها القمع، وتم كبجها باسم عقلانية التحكم وباسم مبدأ المردود. لذلك عندما
ينتقل "ماركوز" إلى مرحلة ما بعد القمع يقيم ربطا بين القوى الجديدة "الحساسية
الجديدة" وضرورة الاعتناء بالخيال في تأسيسه لكل أخلاقية جديدة، أو براكسيس
سياسي جديد يساهم في خلق مجال للحرية الحقيقية.

يؤمن "ماركوز" بفكرة الحرية لكنه يؤكد أن المجتمعات القائمة ومن خلال نظامها
المحكم الحلقات الذي يولد الحاجات والإشباع في آن واحد يقود إلى عالم العبودية
لا إلى عوالم الحرية، وعليه فإن تحقق الحرية يتطلب مهمة وقوى من خارج النظام
حيث يقول: « وسوف يكون لزاما على العمل السياسي الذي يهدف للقضاء عليها، أن
يهاجم، في البنية التحتية للإنسان، أسس القبول والكبت، نفسها وسوف يكون لزاما
عليه أن يتخذ موقعه من خارج النظام، وأن يرفضه جملة وأن يضع لنفسه مهمة
الطفرة بالقيم طفرة جذرية راديكالية »⁶². وأن على القوى المناهضة والتي يفترض أن
تكون خارج النظام، أي تلك التي لم تتأثر بالتنميط والتدجين الذي تمارسه عقلانية
السيطرة، أن تساهم في إرساء عالم الحرية الحقيقي « ومثل هذا العمل السياسي
يتضمن انفصاما وقطيعة بإزاء الأساليب المعتادة والروتينية في النظر والسمع والحس
وفهم الأشياء. هذه القطيعة هي وحدها الكفيلة بادراك الأشكال التي مازالت كامنة
بعد في عالم سوف تنتفي عنه العدوانية والاستغلال »⁶³.

تُجسد هذه المهمة من خارج النظام حالة من الرفض العام والانفصال عن رؤى
ماهو قائم، وبذلك فإن "ماركوز" يعتقد أن قوى الإصلاح أو التغيير تكون من خارج
النظام، في حين نجد أن "هابرماس" يعتقد أنه توجد إمكانات لم تستنفد، على خلفية
أن قيم الحداثة لم تجسد في صورة تامة، وما يجب هو العودة إلى أصول هذه القيم،

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
وقد راهن على إمكانات اللغة، والفعل التواصل، وعقلانية الاعتراف والتكاتف
والتعاون، ويمكن أن نلاحظ أيضا كيف أن "هابرماس" يحاول التغيير دون إلغاء ماهو
قائم، أي حلول ضمن مبدأ الكينونة، في حين يرى "ماركوز" بضرورة الرفض التام
لكل أشكال التنميط التي أفضت في النهاية إلى مجتمع الرفاه والاستغلال، أين نجد
الأفراد « جميعا يرفضون قواعد اللعبة التي تحاك حولهم، والاستراتيجية التي عفا
عليها الزمن، واستراتيجية الصبر والإغواء، والإيمان بحسن نية النظام القائم، إنهم
جميعا يرفضون المتع والمناهج الخداعة اللاأخلاقية التي يقدمها لهم، ورفاهيته
القاسية »⁶⁴.

رابعاً: بين وحدة الغاية وتعدد زوايا الدراسة

يقيم رواد النظرية النقدية ربطاً منطقياً بين المقولات الأكثر تجريداً وأصولها
الاجتماعية والسياسية، وهو -حكم ينسحب أيضاً على مبادرة " فروم " و" ماركوز"-
لبناء تحليلاتهم حول قضايا التسلط والهيمنة التي طبعت الحياة الاجتماعية
والسياسية، وقصد اكتشاف الأساس الفكري الذي يتحكم في مسارها، وعليه فإن
إعادة إنتاج فكر يضاهاي فكر الأنوار من حيث تنظيره لإقامة فضاء واعد بالحرية،
تصان فيه إنسانية الإنسان بأسمى مدلولات هذه الكلمة، ويعاد فيه ترتيب أدوار
فعايلات المجتمع، والحد من سطوة وسائل الاتصال وأسْر الإعلام الموجه، الذي
فُقدت بموجبه كثير من الحريات والخصوصيات، وساهم في إبراز البراءة السياسية
لدولة الاستبداد كما ساهم في تأييد مناخ الضياع والاغتراب والاستهلاك، إلى حدود
تلاشي البعد اليوتوبي لكل تطلع واعد بالحرية.

عندما تهاوى الفضاء الديمقراطي في ألمانيا مع تنامي المد النازي، وحينما استطاع
فكر النازية الجديد أن ينتشر بكل عنفوان العرقية، وتجاهل الآخر المختلف، إلى حد
إلغائه، فقد ترتب عن هذا المد أن كُبتت الحريات الفكرية، واضطر رواد معهد
البحوث الاجتماعية الذي مازال في بدايات نشاطه إلى مغادرة ألمانيا نحو دول أوروبية
مختلفة، ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، خوفاً من همجية التطهير العرقي التي
أعلنها "هتلر" ترتيباً لتطهير كامل أوروبا من معارضي التوسع النازي، وبصورة خاصة

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
العرق اليهودي. حينها أصبح من الضروري اتخاذ موقف دفاعي ضد الفكر النازي
الاقصائي، المهمد للحياة والحريات، وقد زاد الأمر سوءاً بعد اندلاع الحرب العالمية
الأولى، وما ترتب عنها من خراب على كل الأصعدة، وسيادة مناخ الضياع والانحطاط
الثقافي، وقد اتسعت مساحة الحرب لتغدو عالمية، فأخذ كثير من المفكرين على
اختلاف الانتماء في استشعار الخطر والبحث عن أسباب هذه المزالق، ومن الطبيعي
أن يعزى إلى الجانب الأيديولوجي تمام المسؤولية بعد استنفاد مبررات تعارض
المصالح، كل هذه الهزات من الطبيعي أن تقود إلى موقف فكري رافض لهذا المنحى
الخطير الذي آلت إليه دول أوروبا، وهي الرائدة في دفع روح الحضارة الغربية، فكان
أن تبنت مدرسة فرانكفورت الموقف النقدي في محاولة لتشريح هذه النزعة التدميرية
التي صادرت الحريات، ولإعادة إنتاج مفاهيم تعيد للحضارة الغربية أمنها وتطلعاتها
العليا في إنتاج الحياة التي تجسد قيم العقلانية كدليل تحرر، وتجسيد قيم الخير
والجمال، لا لنشر "ثانوس" الحروب والدمار، وهو ما يضع مبادرة كل من "فروم" و"
ماركوز" في خانة النزعة الإنسانية المدافعة عن حق الحياة، ووعود الأنوار التي تتطلع
إلى مستقبل آمن ومستقر.

إن امتداد النزعة التحررية قاد إلى مناقشة مسائل المجتمع والسياسة ضمن
البدائل الماركسية، واستعانة بالمقولات الفرويدية، وهي من النقاط التي يتقاطع فيها
تحليل "فروم" و"ماركوز" معاً، كما أن قسوة المتغيرات السياسية والاجتماعية
والاقتصادية تقحم كل حسابات المجتمع لممارسة تحليل متفاوت الدرجات، غير أنه
يأخذ طابعا أكثر صرامة بانخراط علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد لينال النقد
من الحياة السياسية القائمة، ويكشف مدى ارتباطها بتوجيه المعادلة الاقتصادية
والاجتماعية، وفي هذا الإطار تم توظيف النقد الماركسي كوسيلة فكرية متاحة ورائجة
تستهدف التغيير الاجتماعي من خلال توفير البديل الفكري الذي بإمكانه إزاحة كل
تناقضات التفاوت الطبقي، وكشف صور عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية
وحتى الحقوق السياسية، كما وظف التحليل النفسي الفرويدي لدى "فروم"

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
و"ماركوز" لفهم العلاقة بين العوامل السيكولوجية وتجلياتها السلوكية التي تنعكس
كمواقف تجاه مختلف المتغيرات التي تفرضها حركية المجتمع المتسارعة.
امتدت انتصارات السيكولوجيا مع الوثبة العملاقة التي حققها فرويد، بعد
تأكيد وجود حياة لا شعورية لها علاقة متينة بتحديد سلوك الفرد، ومع إنجازات
التحليل النفسي كطريقة علاج ودراسة، إضافة إلى تناول فرويد مواضيع فكرية
كالحضارة، مما أتاح لكثير من الباحثين أن يستعين بسبل مساعدة لإثراء دراساته،
فنجد مثلاً "ويليم رايش" الذي ساهم « في البداية على تكوين الأرضية التحليلية الأولى
لمفكري المدرسة عندما نبه إلى النتائج التي توصل إليها التحليل النفسي الاجتماعي
ومحاولة علم النفس أن يتجاوز دائرته الفردية باتجاه نطاق المجموع »⁶⁵. ولعل أبرز
من أقام حواراً موسعاً مع فرويد مستعينا به في تحليلاته، مع تسجيل بعض
الاعتراضات هو "ماركوز"، ويتجلى هذا التأثير بوضوح في كتابه "الحب والحضارة"، كما
نجد من صُنّف ضمن الفرويديين الجدد وهو على انتماء وثيق بمدرسة فرانكفورت
شخص "فروم" الذي عمل على مزوادة و« دمج الماركسية والفرويدية ليس بشكل
كهي فحسب- وإنما بصيغة نوعية- تفاعلية »⁶⁶. حيث توجه نحو الاهتمام
بالخصائص النفسية، الانفعالية والذهنية، وما يكتنزه المكبوت في ساحة اللاوعي،
وجملة الإحباطات المتكررة التي يتعرض لها الإنسان الفرد بهدف إدراك وفهم آليات
الحراك الاجتماعي، وهو بذلك يركز على فهم البعد النفسي لما له من تأثيرات على
السلوك الاجتماعي المكون للعملية الاجتماعية، حيث يقول: « وإذا أردنا أن نفهم
ديناميات العملية الاجتماعية، علينا أن نفهم ديناميات العمليات السيكولوجية
العاملة داخل الفرد على نحو ما إذا أردنا أن نفهم الفرد، فإنه يتوجب علينا أن نراه
في سياق الحضارة التي تشكله »⁶⁷. وهذا يبرز أن الدراسة النقدية للمجتمع تتطلب
عناية أكثر بفهم الجانب النفسي للأفراد، وأن يتم التعامل مع حوصلة التفاعل
بصورة منظمة ليسهل فهم تعقيدات الحياة الاجتماعية.

لقد قاد التراكم المعرفي الذي وفرته الاختصاصات المتعددة إلى تعدد زوايا
الدراسة، وإلى تكوين تصورات اتسمت بالنضج المعرفي، وهو ما ساعد رواد المدرسة

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أ.جمال براهيمة

على توسيع إطلاعهم والاستعانة بدراسات غيرهم، فمجال السوسولوجيا مثلا عرف تميز بعض الدراسات الاجتماعية، خاصة مع "ماكس فيبر" الذي «كان له تأثير شديد على مدرسة فرانكفورت فقد تناول في مؤلفاته مقولات مثل التشيؤ والاعتراب، وكذلك حديثه عن العقلانية التقنية. فكان اهتمام فيبر بمشاكل الاقتصاد وبنية السوق بقدر اهتمامه ببنية السلطة فيؤكد على الصلة الترابطية باعتبارها الأكثر عقلانية»⁶⁸. وهذا يؤكد أن لا إبداع من عدم، وأن تلاقح الأفكار الخصبة ينتج فكرا أكثر دقة وفعالية.

ناقش "فروم" و"ماركوز" مسألة الحرية من خلال دراسة ظواهر العنف والقمع والكبت، وارتباطاتها بالنماذج السلطوية من أسرة ودولة وقانون، وصناعة ثقافة الامتثال وعقلانية السيطرة، كمحاولة لفهم الأسباب البعيدة التي تقود إلى هذه النزعات التدميرية التي تنتهي بإغفال لمطلب الحرية، واستبعاد لإمكانية التحرر، ويحضر كتاب "تشریح التدميرية البشرية" لـ"فروم" كمبادرة سبقت تحليلات ماركوز لفهم ظاهرتي القمع والكبت وعلاقتها بالحضارة، حيث استعان "فروم" بمقولات عدة لـ"فرويد"، مع أنه قد خلص إلى نتائج خالف فيها فرضيات "فرويد"، فإذا كانت «الحضارة تحدث الكبت "التكويني" والوراثي، أي أن بعض الحاجات الغريزية تضعف حقا في سيرورة الحضارة، فإنه قد وجد المخرج من المعضلة. فليس من شأن الإنسان المتحضر أن تحفزه مطالب غريزية معينة مضادة للحضارة بالدرجة التي تحفز الإنسان البدائي. ولن يكون للدافع إلى التدمير من الشدة والقوة في الإنسان المتحضر ما لهما في الإنسان البدائي»⁶⁹. أما "ماركوز" فلم يحاكي ظاهرة القمع حسب التصور الفرويدي. بل نبه إلى القمع المتزايد الذي يفرضه المجتمع الصناعي المتقدم بصورة خفية، وبآليات تداري حسابات السيطرة، هذه الأساليب «عرضت الإنسان لأشكال مختلفة من القهر الظاهر والباطن، والقمع الواعي أو غير الواعي الذي ينطلق من أجهزة الإنتاج الضخمة، والمؤسسات الإدارية والبيروقراطية والاستهلاكية والإعلامية التي تشبه آلات هائلة يحاول الناس أن يكييفوا أنفسهم مع ضغوطها ومطالبها، ويضطرون في سبيل ذلك إلى قمع طبيعتهم»⁷⁰. وتمتد تحليلات "ماركوز" النقدية لهذه الظاهرة كاشفة عن مدى تحوير الطبيعة الغريزية للأفراد، وكيفيات

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
التحكم في سلوكهم بالصورة التي تثبت ماهو قائم، وتدافع عن شروط استلابهم
وقمعهم وفقدان حريتهم .
الخاتمة:

تعتبر قاعدة ربط النظرية بالواقع والممارسة إلتراما يحضر لدى جل أقطاب
مدرسة فرانكفورت، وعليه وجب الانتباه إلى العلاقات الوطيدة بين الإنسان كذات
واعية توجهها حياة شعورية وأخرى لاشعورية -بدلالة التحليل النفسي الفرويدي- في
تفاعلها مع الواقع الثقافي والحراك الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، مما يجعل فهم
تطلعات الإنسان عموما، والحرية بشكل خاص بحاجة إلى الاستعانة بأدوات معرفية
توفر إمكانية الفهم الحيادي وغير المنحاز، وهو ما تبناه "فروم" في مزواجه بين
التحليل النفسي الفرويدي والنظرية الماركسية، كذلك "ماركوز" يلتزم بالتقليد ذاته،
مع انفتاح معلن على اختصاصات أخرى، وبكثير من الاصطفاء دفعا لادعاء التقليد
دون إبداع، هذه الانتقائية يراعى فيها التأثير الخفي للدوافع اللاشعورية -التي أهملها
ماركس- مضافة إلى البعد الاجتماعي والاقتصادي، وهو دعامة الواقعية التي استند
إليها "ماركس" لفهم السلوك الإنساني.

إن الاعتراف بالحرية كقيمة وممارسة إفراز طبيعي للاحتكام للفعل العقلاني الذي
ساهم في فك السحر والاستقلال عن الأسطورة التي كبلت مجتمعات أوروبا لفترات
تاريخية معلومة، ومثل هذه الأسس أي الحرية والعقلانية قادت اضطرابا إلى الإقرار
باستقلالية الفرد من حيث توجهه الخلفي وتطلعاته السياسية، فأعطت للفرد حق
تقرير وجوده. وانتقلت الحرية من مستوى التصور والمطلب السياسي لتتجسد
كممارسة، وكحق إنساني ومدني، فغدت سلطة الدولة حامية للحريات الفردية
والجماعية، وهو مكسب يوجب الحفاظ عليه كما الدفاع عنه، لكن الحال الذي آلت
إليه الحرية حسب قراءة "فروم" و"ماركوز" تؤكد مستوى التضليل والاستلاب الذي
تعرض إليه منظومة القيم في المجتمع الغربي، وما تناول موضوع الحرية إلا إشارة
تلفت الانتباه إلى حجم التحوير الذي يتسلل إلى مختلف مناحي الحياة الفردية
والجماعية، وهو استشعار للمخاطر التي تصادر أبعاد وجود الإنسان الغربي، فإذا اهتز

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أجمال براهمة
مكسب الحرية فمن المؤكد أن تتداعى سائر القيم الأخرى كالعدالة والمسؤولية
ومضامين الحق والواجب، ومنظومة القوانين وكل دلالات السلطة والدولة
ومؤسساتها.

إن حالات الاغتراب القلقة التي غدت مظهرا بائسا يرافق يوميات الإنسان الغربي
تعبّر عن تراجع وضآلة الفرد بفعل عقلانية الهيمنة التي طغت على مختلف مناحي
الحياة، إضافة إلى التشيؤ الذي أفرزه التصنيع المعتمد على التقنية، وتوجهات العقل
الاداتي الذي حاد عن غاياته لتحقيق مستقبل واعد بالحرية والأمن، كل ذلك
مؤشرات صريحة لفقدان الحرية كقيمة وممارسة حسب تقديرات "فروم" و"ماركوز"،
إضافة إلى النزعة الاستهلاكية المفروضة بآليات الإغراء، وهي دليل آخر عن المخاطر
التي تصادر إمكانات التحرر مما جعل "ماركوز" يقول بإرجاء الثورة والتحرر، بينما
فسر "فروم" مظاهر الاغتراب والضياع تفسيراً مازوشياً حين يتنازل الإنسان عن
حريته، ويميل إلى الخضوع لآخر قد تكون فكرة الزعيم أو المؤسسة بديلاً يعوض به
عجزه، ويبرر هروبه وخوفه من الحرية.

إن البدائل التي يقترحها كل من "فروم" و"ماركوز" تنطلق من ضرورة النقد
الدقيق للواقع القائم، فالنقد دليل حرية والوعي بالواقع طريق نحو إدراك سبل
التحرر، وقد شدد "ماركوز" على ضرورة الاستقلال عن النظرة أحادية البعد التي
فرضتها عقلانية السيطرة، كما حاول "فروم" رغم طيف التشاؤم الذي يتخلل
تطلعاته أن ينبه إلى أهمية إعادة ترتيب البيت النفسي للإنسان لإحداث تغيير فعال
على المستوى الاجتماعي والسياسي، وفي المبادرتين تأكيد على أهمية الحفاظ على أبعاد
الوجود الحر والمسؤول ووعي الذات العارفة بمصيرها، مما يحدث تماساً واضحاً
ومشتركا بين آراء "فروم" و"ماركوز" يبرز ضرورة العناية بالإنسان كمحور لعملية
التغيير والتحرر.

الهوامش:

- 1 - أريك فروم: تشريح التدمير البشرية، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، ج1، 2006م، ص:79.
- 2 - أريك فروم: الإنسان المستلب وأفاق تحرره، ترجمة حميد لشهب، نداكوم للطباعة والنشر، الرباط، 2003م، ص:26.
- 3 - توم بوتومور: مدرسة فرانكفورت، ترجمة سعاد هجرس، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع، ليبيا، ط1، 1998م، ص: 52.
- 4 - أريك فروم: الخوف من الحرية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1972م، ص:9.
- 5 - أريك فروم: تشريح التدمير البشرية، ص: 35.
- 6 - أريك فروم: الخوف من الحرية، ص: 10.
- 7 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 8 - المصدر نفسه، ص: 11.
- 9 - أريك فروم: الخوف من الحرية، ص: 12.
- 10 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 11 - المصدر نفسه، ص: 12-13.
- 12 - المصدر نفسه، ص: 14.
- 13 - أريك فروم: الإنسان من أجل ذاته، بحث في سيكولوجيا الأخلاق، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة، سوريا ط1، 2007م، ص: 274.
- 14 - أريك فروم: الخوف من الحرية، ص: 26.
- 15 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 16 - المصدر نفسه، ص: 27.
- 17 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 18 - المصدر نفسه، ص: 28.
- 19 - أريك فروم: الإنسان المستلب وأفاق تحرره، ص: 41.
- 20 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 21 - أريك فروم: الخوف من الحرية، ص: 27-28.

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أ.جمال براهيمة

- 22- أريك فروم: الخوف من الحرية، ص: 34.
- 23- أريك فروم: ثورة الأمل – نحو تكنولوجيا مؤنسة-، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 2010م، ص:51.
- 24 - أريك فروم: فن الوجود، ترجمة ايناس نبيل سليمان، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2011م، ص:53
- 25 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 26 - قيس هادي احمد: الإنسان المعاصر عند هيرت ماركيز، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1980م، ص: 224.
- 27 - هيرت ماركوز: نحو التحرر- فيما وراء الإنسان ذي البعد الواحد- ترجمة إدوارد الخراط، منشورات الآداب، بيروت، ط1 1972 م، ص: 21.
- 28 - Gérard Roulet: Herbert Marcuse philosophie de l'émancipation, presse universitaires de France, paris, 1992, p.183
- 29 - هيرت ماركوز: نحو التحرر، ص: 21.
- 30 - عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، المركزية الغربية – إشكالية التكون والتمركز حول الذات – المركز الثقافي العربي، بيروت ط1، 1997م، ص : 348.
- 31 - هيرت ماركوز: نحو التحرر، ص: 27.
- 32 - Jean-Claude Clavet: *Le concept de liberté chez herbert marcuse, Philosophiques, Vol. 13, Numéro 2, Automne 1986. p.209.*
- 33 - *Ibid, p.215*
- 34 - *Ibidem.*
- 35 - *Ibid, p. 216*
- 36 - هيرت ماركوز: الثورة والثورة المضادة- نحو حساسية ثورية جديدة-، ترجمة جورج طرايبيشي، دار الآداب، بيروت، (د ط) (د ت)، ص: 60.
- 37 - قيس هادي أحمد: الإنسان المعاصر عند هيرت ماركيز، ص:151.
- 38- عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، ص: 348.
- 39 - هيرت ماركوز: الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرايبيشي، دار الآداب، بيروت، ط3، 1988م، ص: 40.
- 40 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 41- المصدر نفسه ، ص: 43.
- 42 - المصدر نفسه، ص ص: 43-44.

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "أريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أ.جمال براهيمة

- 43 - المصدر نفسه، ص: 60.
- 44 - هربرت ماركوز: البعد الجمالي، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط 2 1982م، ص89.
- 45 - هربرت ماركوز: الإنسان ذو البعد الواحد، ص: 264.
- 46 - قيس هادي أحمد: الإنسان المعاصر عند هربرت ماركوز، ص: 111.
- 47 - أمل مبروك: مشكلة الإنسان في الفكر المعاصر، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، (د ط)، 2004م، ص: 172.
- 48 - أريك فروم: الخوف من الحرية، ص: 12.
- 49 - المصدر نفسه ، ص: 13 .
- 50- روبرت بنيوك- فيليب جرين: موسوعة المفكرين السياسيين في القرن العشرين، ترجمة مصطفى محمود، المركز القومي للترجمة القاهرة، ط1، 2010م، ص: 158.
- 51 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 52 - محمد نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، نموذج هابرماس، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 1998م ص: 34 .
- 53 - أريك فروم: الخوف من الحرية، ص: 14.
- 54- رشيد الحاج صالح: الإنسان في عصر ما بعد الحداثة، كتاب الرافد، العدد 046 مايو 2013م، دار الثقافة والإعلام، الشارقة ص: 12.
- 55 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 56 - هربرت ماركوز: نحو التحرر، ص: 25.
- 57 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 58 - المصدر نفسه، ص: 26.
- 59 - المصدر نفسه، ص: 28 .
- 60 - هربرت ماركوز: البعد الجمالي، ص ص: 7-8.
- 61 - هربرت ماركوز: نحو التحرر، ص: 40.
- 62 - المصدر نفسه، ص: 12.
- 63 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 64 - المصدر نفسه، ص: 13.

الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "اريك فروم" و"هربرت ماركوز".....أ.جمال براهيمة

- 65 - أبو النور حمدي أبو النور حسن: يورجين هابرماس. الأخلاق والتواصل، دار التنوير، 2009م، ص: 39.
- 66 - المرجع نفسه، ص: 39.
- 67 - اريك فروم: الخوف من الحرية، ص: 10.
- 68 - المصدر نفسه، ص: 34.
- 69 - اريك فروم: تشریح التدميرية البشرية، ص ص: 283-284.
- 70 - عبد الغفار مكاوي: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، تمهيد وتعقيب نقدي، حوليات كلية الآداب، الكويت، الحولية 13 1993م، ص: 31.